

التعريف بكتاب الاعتصام

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا * وَمَنْ يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ
هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

العلماء المستقلون في هذه الامة ثلثة من الاولين ، وقليل من الآخرين ،
والامام الشاطبي من هؤلاء القليل ، وما رأينا من آثاره الا القليل ، رأينا كتاب
(المواقفات) من قبل ، ورأينا كتاب (الاعتصام) اليوم ، فأشدنا قول الشاعر :

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

أدخل دار الكتب الخديوية وارم بصرك الى الألوف من المصنفات في
خزائنها ، تر أن كثرتها قلة ، وكثيرها قليل ، لأن القليل منها هو الذي تجد فيه
علما صحيحا لا تجده في غيره ، لأنه مما فتح الله به على صاحبه دون غيره . وقد
كان كتاب (الاعتصام) من هذا القليل ، فأحسنت نظارة المعارف الى الامة
الاسلامية كلها بأجابة مجلس ادارة دار الكتب الخديوية الى طبعه

اتفق علماء الاجتماع والسياسة والمؤرخون من الامم المختلفة على أن العرب
مانهضوا نهضتهم الاخيرة بالمدينة والعمران الا بتأثير الاسلام في جمع كلمتهم ،
واصلاح شؤونهم النفسية والعملية ، ولكن اضطرب كثير من الناس في سبب
ضعف المسلمين بعد قوتهم ، وذهاب ملكهم وحضارتهم ، فنسب بعضهم كل ذلك
الى دينهم ، ومن يتكلم في ذلك على بصيرة يثبت ان الدين الذي كان سبب
الصالح والاصلاح ، لا يمكن أن يكون سبب الفساد والاختلال ، لان العلة الواحدة ،
لا يصدر عنها معلولات متناقضة ، فاذا كان لدين المسلمين تأثير في سوء حال خلفهم ،
فلا بد أن يكون ذلك من جهة غير الجهة التي صلحت بها حال سلفهم ، وما هي الا
البدع والمحدثات التي فرقت جماعتهم ، وزحزحتهم عن الصراط المستقيم

من أجل ذلك كان تحرير مسائل البدع والابتداع مما ينفع المسلمين في أمر
دينهم وأمر دنياهم ، ويكون أعظم عون للدعاة الاصلاح الاسلامي على سعيهم .

وقد كتب كثير من العلماء في البدع ، وكان أكثر ما كتبوا في الترهيب والتنفير ،
والرد على المبتدعين . ولكن الفرق التي يرد بعضها على بعض ، يدعي كل منها أنه
هو الحق ، وأن غيره الضال والمبتدع ، إما بالأحداث في الدين ، وإما بجهل
مقاصده ، والجود على ظواهره ، وما رأينا أحداً منهم هُدي إلى ما هُدي إليه
(أبو اسحاق الشاطبي) من البحث العلمي الاصولي في هذا الموضوع ، وتقسيمه
إلى أبواب يدخل في كل واحد منها فصول كثيرة

لولا أن هذا الكتاب ألف في عصر ضعف العلم والدين في المسلمين كان
مبدأ نهضة جديدة لإحياء السنة ، وإصلاح شؤون الأخلاق والاجتماع ، وكان
المصنف بهذا الكتاب وبصنوه كتاب الموافقات - الذي لم يسبق إلى مثله سابق
أيضاً - من أعظم المجددين في الإسلام . فثله كمثل الحكيم الاجتماعي عبد الرحمن
ابن خلدون ، كل منهما جاء بما لم يسبق إلى مثله ، ولم تنتفع الأمة - كما كان يجب -
بعلمه

كتاب الموافقات لاند له في بابه (أصول الفقه وحكم الشريعة وأسرارها)
وكتاب الاعتصام لاند له في بابه ، فهو ممتع مشبع ، ولا يتمه المصنف رحمه الله
تعالى . وقد صدره بمقدمة في غرابة الإسلام وحديث « بدأ الإسلام غريباً » المنبئ
بذلك . ثم جعل مباحث ما كتبه في عشرة أبواب

(الباب الاول) في تعريف البدع ومعناها (الثاني) في ذم البدع وسوء متقلب
أهلها (الثالث) في أن ذم البدع والمحدثات عام ، وفيه الكلام على شبه المبتدعة ،
ومن جعل البدع حسنة وسيئة (الرابع) في مأخذ أهل البدع في الاستدلال
(الخامس) في البدع الحقيقية والاضافية والفرق بينهما (السادس) في أحكام
البدع وأنها ليست على رتبة واحدة (السابع) في الابتداع : يختص بالعبادات ، أم
تدخل فيه العادات ؟ (الثامن) في الفرق بين البدع والمصالح المرسله والاستحسان
(التاسع) في السبب الذي لأجله اقرقت فرق المبتدعة عن جماعة المسلمين
(العاشر) في الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه المبتدعة .

وفي هذه الابواب مباحث تشبه فيها المسائل ، وتعارض الدلائل ، وتنتفج

الشبهات ، وتترأى في معارض البينات ، حتى يعز تحرير القول فيها ، والفصل بين قوادمها وخوافيها ، الاعلى من كان مثل المصنف في نور بصيرته ، وغزارة مادته ، وقوة عارضته ، وفصاحة عبارته

ومن أغمض هذه المسائل ما كان سنة أو مستحبا في نفسه وبدعة لوصف وهيئة عرضت له ، كالتزام المصلين المكث بعد الصلاة لاذكار وأدعية مأثورة يؤدونها بالاجتماع والاشترك ، حتى صارت شعارا من شعائر الدين ، ينكر الناس على تاركها دون فاعليها ، وقد أطال المصنف في اثبات كونها بدعة وأورد جميع الشبه التي دعمت بها ، وكر عليها بالنقض فهدمها كلها

ومالي لا أذكر لعلماء الشرع الاعلام ، ولأهل السياسة من علماء الحقوق والاصراء والحكام ، أهم ما شرحه لهم هذا الكتاب من أصول الاسلام ، وهو بحث المصالح المرسله والاستحسان ، من أصول مذهبي مالك وأبي حنيفة النعمان . وبهما يظهر اتساع الشرع لمصالح الناس في كل زمان ومكان ؟

بين المصنف وجه اشتباه ماسموه البدع المستحسنة ، بالاستحسان الفقهي والمصالح المرسله . ثم كشف كل شبهة . وأزال كل غمة . فبين أن البدع ليست من هذين الاصلين في ورد ولا صدر ، ولا تتفق معهما في علة ولا غرض ، فان البدعة كيفما كانت صفتها استدراك على الشرع وافقيات عليه ، وأما مسائل المصالح المرسله والاستحسان فهي موافقة لحكمته ، وجارية على غير المعين من عموم بيناته وأدلته . وقد أورد المصنف ما قيل في تعريف ذينك الاصلين ووضح ذلك بالشواهد والامثلة ، فلو انك قرأت جميع ما تناوله المدارس الاسلامية من كتب أصول الفقه وفروعه ، لا تثبت وانت لا تعرف حقيقة المصالح المرسله والاستحسان ، كما تعرفنا من هذا البحث الذي أوردها المصنف فيه تابعة لبيان حقيقة البدعة لا مقصودة بالذات من أراد أن يعرف فضل الاسلام وسماحته ، وسهولته ومرونته ، فليأخذه من ينبوعه ، وليستن على فهمه بهؤلاء الحكماء الذين يشددون في انكار البدع ، ويدعون المسلمين الى السنة التي كان عليها السلف ، ويرون ضلال من يزيد في العبادات عليهم ، أشد وأضر من ضلال من ينقص في غير أصول الفرائض عنهم ،

ويوسعون على الناس في أمور العادات ، بناء على أصل الاباحة في الاشياء ، وان ظن كثير من الجاهلين ، ان هذا هو عين الجود في الدين ، وجعله ديناً خاصاً بأهل البداوة ، لا يطبق احتمالاً أهل المدنية والحضارة ، والامر بالصد ، والله الامر من قبل ومن بعد

كان هذا الكتاب كنزاً مخفياً لا توجد منه في هذه الاقطار الا نسخة بخط مغربي في كتب الشيخ محمد محمود الشنقيطي المحفوظة في دار الكتب الخديوية ، فاستخرجه مجلس ادارتها في العام الماضي واقترح طبعه ، فوافق ذلك رغبة صاحب السعادة أحمد حشمت باشا ناظر المعارف لذلك العهد ، وعهد الي بطبعه بشروط بينها في الكتاب الذي كتبه الي بذلك . وأرسلت الي دار الكتب الجزء الاول منه مذبوحاً نسخاً جديداً على أوراق متفرقة لتجمع حروف الطبع عنها . فتصفحت بعضها فألفت فيها غلطاً وتحريفاً كثيراً حتى في الاحاديث ، فكتبت في حاشية ما جمعت حروفه منها ليكون نموذجاً للطبع تصحيحاً لما ظهر لي غلطه ، وتحريفاً لحديث « بدأ الاسلام غريباً » الذي بنى عليه المصنف مقدمة الكتاب وجعله الاصل في وجه الحاجة اليه . وفسرت فيها بعض الكلم الغامض وأطلعت على ذلك صديقي الاستاذ الفاضل السيد محمد البيلاوي وكيل دار الكتب الخديوية الذي يرجع اليه في تصحيح الكتب التي تطبع على نفقتها ، وقلت له يعز علي أن يطبع هذا الكتاب النفيس من غير أن يصحح أصله ويعلق عليه شيء . وأنا أتبرع بما أراه ضرورياً من ذلك ، ومطبعتي تبرع بتصحيح الطبع أيضاً . ولو كنت في سعة من وقتي لخرجت أحاديثه كلها ، وبذلت العناية بمراجعة كل نقوله من مظانها ، وبغير ذلك من تصحيحه . فقال : نحن نرى من التوفيق أن يطبع هذا الكتاب تحت نظرك واشرافك ، ونرى انك أجدر وأحق بتصحيحه

ما تيسر لي قراءة شيء من الكتاب في وقت فراغ ، بل كانت المطبعة تعرض علي الاوراق عند ارادة الاشتغال بطبعها ، فكنت أرى الغلط فيه أنواعاً - (أحدها) ما اقطع بأن صوابه كذا كتحرير بعض الايات ، أو الاحاديث المعزوة الي غير جيبها ، وتحريف أو تصحيف بعض الكلم ، فأنا أصحح هذا ولا أذكر في

الحاشية ما كان في الاصل الا قليلا (ثانيها) ما أظن ان صوابه كذا . وهو ما اكتب في الحاشية « لعل أصله كذا » أو ما يفيد هذا المعنى (ثالثها) ما أشبهه في أصله ما هو . فنه ما أفهم المراد منه بالقرينة ، فأما ان أشير اليه في الحاشية ، وإما ان أتركه للقارئ . ويقل فيما تركته التحريف الذي لا يفهم المراد منه مطلقا ، أو الا بعد تأمل طويل .

وقد يرى القارئ في بعض المواضع منه كلمات بين هذه العلامات () التي يعبرون عنها بالاهلة أو الأقواس أو بدونها وقد تكون من حرف صغير ، ويرى ان المعنى لا يلتزم الابهاء ، ويجزم بأنها من الاصل ، وانما ميزناها بما ذكر لي علم انها من المصحح ، ويرى في بعض المواضع علامة الاستفهام بين قوسين هكذا - ؟) ويشار بها الى خفاء في تلك المواضع أو غلط لم نهتد الى أصله . ولكن لم نلتزم ذلك في كل مواضع الغلط لمبهم

وقد تركت تصحيح بعض الاحاديث والآثار التي أحفظها من كتب الصحاح والسنن على غير ما وردت عليه في الكتاب ، اثلا يكون بعض المحدثين الذين لم نطلع على كتبهم رواها بسياق المصنف . وكتبت بازاء بعض ذلك علامة المراجعة على أوراق الطبع ، مريدا بذلك ان تعيده المطبعة الي للتأمل فيه أو مراجعته في مظانه . وعلمت بعد ذلك ان المطبعة كانت تراجع في بعض ذلك نسخة الكتاب المغربية فاذا رأت المعدل للطبع موافقا لها طبعته ولم تعده الي ؛ فيفوتني ما أريد من تصحيحه

وجملة القول اني على ما أقاسي من العناء في تصحيح الكتاب لا أدعي انه قد تيسر لي تصحيحه كما أحب . وانما أقول انه بصح تصحيحاً يمكن القارئ من فهمه ، فلا يكاد يخفى عليه منه الا النادر من المفردات أو الجمل التي لا يخل خفاؤها بفهم المسألة التي عرضت له فيها . فهذا هو الطريق الذي سلكته في تصحيحه ، يئته قبل الأمام ، وعسى الله ان يوفقني بالخير الى زيادة العناية وحسن الختام ما

محمد رشيد رضا

وكتب في ١٥ شوال سنة ١٣٣٢

منشئ المنار ، وناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد